دلالة العادة المستمرة في القرآن

The significance of the continuous habit in the Qur'an

فيصل بن عبد الرحمن الحازمي: قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية

Faisal bin Abdul Rahman Al-Hazmi: Department of the Book and the Sunnah, College of Da`wah and Fundamentals of Religion, Umm Al-Qura University, Kingdom of Saudi Arabia

الملخص:

هدفت الدراسة للتعرف على دلالة العادة المستمرة في ضوء الآيات الواردة في القرآن الكريم، حيث وقف الباحث على فوائد متعددة من خلال هذا البحث، وتبيَّن له أن الطرق المنهجية التي اشتمل عليها القرآن؛ والتي تُسمَّى "عادات القرآن"، وأشارت الدراسة إلى أنَّه ينبغي لطالب علم التفسير وعلوم القرآن الإلمامُ بها، نظرًا لما لها من عائدةٍ على فهمِهِ لحقائق الكتاب الكريم، كما أنها تُعدُّ مُرجِّحًا قويًّا في مسائل الخلاف، فتُستَصْحبُ العادةُ القرآنية في الفهم والتفسير عند تزاحم الأدلة وتعارضها.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، التربية في القرآن، العادات في القرآن، قصص القرآن

Abstract:

The study aimed to identify the significance of the continuous habit in the light of the verses contained in the Holy Qur'an. Which is called "the habits of the Qur'an", and the study indicated that the student of interpretation and the sciences of the Qur'an should be familiar with them, because of their benefit to his understanding of the truths of the Holy Book, and it is considered a strong weight in issues of disagreement, so the Qur'anic habit of understanding and interpretation is accompanied when evidence is crowded and conflicted .

Keywords: Holy Qur'an, Education in Qur'an, Habits in Qur'an, Qur'an Stories

المقدمة:

يبدو من الواضح للمتدبر للقرآن الكريم، والمتفهم لطريقته يجد أنه يحوي بين دفتيه من القواعد التربوية والدعوية؛ ما إن سار عليها المربون والدعاة والمصلحون لأدى ذلك إلى نجاح الدعوة واستقرارها في النفوس السليمة، والعقول المستقيمة وفي هذه البحث نعرض لبعض دلالة العادة المستوردة في القرآن الكريم. ونلاحظ في القرآن الكريم أن هناك العديد من الأهداف التربوية، وهناك

من ينظر إلى مواضيعها على أنَّها سبعة وهي: التربية العقيدية، والتربية الخُلقية، والتربية الجسمية، والتربية العقلية، والتربية النفسية، والتربية الاجتماعية، والتربية الجنسية.

طالما أنَّ البحث يتكلم عن بعض العادات الواردة في القرآن الكريم؛ فتجدر الإشارة إلى أنَّ هذه العادات تشير إلى كل ما كرره القرآن الكريم تكرارًا تقرَّر من خلاله مسلك منهجي؛ لفظي أو أسلوبي أو معنوي؛ مِن جراء استحضار نفس الصيغ الإجرائية في معالجات معينة، لتقرير معالِم الهداية والتلقي والاستدلال في نفس القارئ أو السامع.

نتيجة لما سبق ذكره؛ تدور مشكلة الدراسة حول الإحاطة ببعض العادات المستمرة التي ذكرها القرآن الكريم وبيان الفائدة المرجوة من العلم بها.

ويجري تناول البحث على النحو التالي:

- المبحث الأول: تعريف العادة المستمرة في القرآن وفائدة العلم بها
  - المطلب الأول: تعريف العادة المستمرة في اللغة والاصطلاح
  - المطلب الثاني: تعريف المصطلح المركب للعادات المستمرة في القرآن
  - المطلب الثالث: الفائدة المرجوة من العلم بالعادات المستمرة في القرآن الكريم
- المبحث الثاني: من العادات المستمرة في القرآن الكريم:
  - المطلب الثاني: تلازم ذكر الترغيب والترهيب بين يدي الأحكام التكليفية
  - المطلب الثالث: الكناية فيما لا ينبغي التصريح باسمه
  - المطلب الرابع: تنزيه الله سبحانه وتعالى عن نسبة السوء إليه
  - المطلب الخامس: تقديم اسم الله "الغفور" على اسمه "الرحيم"
  - المطلب السادس: تعقيب البشارة بالنذارة والوعد بالوعيد أو العكس
  - المطلب السابع: إطلاق مصطلح "عباد" على خصوص أهل الإيمان
  - المطلب الثامن: عطف الخاص على العام عطفٌ لأشرف أفراده عليه
  - المطلب التاسع: حذف ما يدل عليه السياق
  - المطلب العاشر: إطلاق لفظ "الإنسان" في القرآن المكي على أهل الشرك
- الخاتمة.

المبحث الأول: تعريف العادة المستمرة في القرآن وفائدة العلم بها

المطلب الأول: تعريف العادة المستمرة في اللغة والاصطلاح:

الفرع الأول: العادة لغة: هي الدَّيْدَنُ والدُّرْبَة والتمادي في الشيء حتى يصير سجيَّةً، مأخوذةٌ من عاد يعودُ عوْدًا ومعاودةً، واعتادَ الشيءَ جعلَه عادةً، والمعاودُ المواظِبُ. قال ابن فارس: العينُ والواو والدال أصلان صحيحان، يدل أحدهما على تثنيةٍ في الأمر..."[1].

الفرع الثاني: العادة اصطلاحًا: تعدَّدَتْ تعريفات أهل العلم؛ فقال الجرجاني: "ما استَمرَّ الناسُ عليه على حُكم المعقول، وعادُوا إليه مرةً بعد أخرى"[2].

وقيل: "العادة عبارةٌ عما يستقر في النفوس من الأمور المتكررة المقبولة عند الطباع السليمة"[3].

الفرع الثالث: المستمرة لغة: الاستمرار في اللغة دوامُ الشيء وتلاحقُهُ، ومنه قولهم: استَمَرَّ دمُ الحائض إذا لم ينقطع[4].

الفرع الرابع: المستمرة اصطلاحًا: المعنى الاصطلاحي يدور على نفس المعنى اللغوي، ولم أجد مَن تعرَّضَ لتعريفه.

المطلب الثاني: تعريف المصطلح المركب للعادات المستمرة في القرآن:

مما ينبغي التنبيه عليه؛ أنَّ اعتبار أيِّ قضيةٍ قرآنيّةٍ عادةً مستمرة لا يلزم منه عدم انخرامِها البتة، بل يكفي أن تكون ظاهرةً ظهورًا غالبًا في أسلوب القرآن ومنهجه ألفاظًا وأغراضًا، لأنَّ عالمية الأفق الرسالي للمصحف الشريف جعل مضمونه منوَّعًا تنوُّعَ الأبنية النفسية والأقاليم الجغرافية والتغيرات الزمانية، لذلك قيل: "ما مِن عامٍّ إلا وقد خُصَّ"[5]. قال الإمام الشاطبي: "... الأمرُ الكليُّ

---

(1) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، د.ط، دار الفكر، 1399ه/1979م، (181/4)، و القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1426ه/2005م، (ص303)،

(2) التعريفات، الجرجاني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1403ه/1983م، (ص146).

(3) الأشباه والنظائر، ابن نجيم، تحقيق: زكريا عميرات، ط1، دار الكتب العلمية، 1419ه/1999م، (ص79)، الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، محمد البورنو، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1416هـ/1996م، (ص274).

(4) معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي- حامد صادق قنيبي، دار النفائس، ط2، 1408هـ/1988م، (ص65).

(5) شرح تنقيح الفصول، القرافي، ط2، شركة الطباعة الفنية المتحدة، 1393ه/1973م، (ص193)، حاشية التفسير لابن القاسم، ط2، 1410هـ/1990م، (ص49)، دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي، ط10، 1424هـ/2003م، (ص436).

إذا ثبتَ كليًّا، فتخلُّفُ بعضِ الجزئيات عن مقتضى الكليّ لا يُخرجُه عن كونِه كليًّا"[1]. لذلك كان من أجمع تعاريف عادات القرآن ما ذكره الدكتور راشد الثنيان بقوله: "ما كَرَّرَه القرآنُ على طريقةٍ مطَّردة أو أغلبيةٍ لدلالةٍ خاصة"[2].

المطلب الثالث: الفائدة المرجوة من العلم بالعادات المستمرة في القرآن الكريم:

لا يزال أهل العلم يستنفرون الهمم في التعرف إلى عادات القرآن الكريم، وفهم المسالك المنهجية التي تنتظم فيها تلك العوائد القرآنية، باعتبارها بابًا من أبواب التفقُّه في الكتاب الكريم، وعوْنًا على الإلمام بالغايات الكبرى التي دارت الآيات والسور في فلكها، وكلما اتسعت حصيلة الطالب في دراية عرف القرآن ومعهود استعمالاته اللفظية والمعنوية، رسختْ قدمُه في فهم مناطات القرآن واتسعتْ مداركه في النفوذ إلى هداياته وحقائقه. فهذا العلامة ابن عاشور يعقد له عنوانًا في مقدمات تفسيره، ويجعله من مهمات ما ينبغي للمفسر أن يتعلمه، فيقول: "يَحِقُّ على المفسِّر أن يتعرَّفَ عادات القرآن من نَظْمه وكَلِمِه، وقد تعرض بعض السلف لشيء منها، فعن ابن عباس: كل كأس في القرآن فالمرادُ بها الخمر، وذكر ذلك الطبري عن الضحاك أيضا..."[3].

المبحث الثاني: نماذج للعادات المستمرة في القرآن الكريم:

المطلب الأول: تقديم الشمس على القمر من العادات القرآنية المستمرة:

جرت العادة في الكتاب الكريم على تقديم الشمس على القمر في الذكر، قال تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا"، وقال جل وعلا: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}، وقال سبحانه: {الشمس والقمر بحسبان}، وقوله تبارك وتعالى: {والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها}.

وللعلماء أقاويلُ وتعاليلُ في التماس حكمة هذا الترتيب، فمنهم من لَحَظ السُّنةَ الكونية والحقيقةَ العلمية التي تنبثق عن علوم الفلَك، وأنَّ ضياءَ الشمس أصلٌ في سطوعِ نورِ البدر، فكان تقديمها عليه من قبيل تقديم الأصل على الفرع. ومنهم من نظر إلى كمالِ ضيائها وعظمة جِرْمِها واتِّساع نفعِها مقارنةً بالقمر، ومنهم من نَظَر إلى عظمة تسخيرها وأنه أدخلُ وأدلُّ على القُدرة المطلقة من تسخير

(1) الموافقات، الشاطبي، تحقيق: مشهور حسن، ط1، دار ابن عفان، 1417ه/1997م، (83/2).

(2) عادات القرآن الأسلوبية، راشد الثنيان، د.ط، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، 1432هـ، (29/1).

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور، د.ط، الدار التونسية، تونس، 1984م، (124/1)، و بحث: "عادات القرآن الكريم وأثرها في التفسير"، لمحمد صالح الغريسي، مجلة البحوث والدراسات، عدد رقم: 21، 2016م، (ص12).

القمر[1]، وقد جَمَع هذه الوجوه كلَّها الإمام الآلوسي في تفسيره، فقال: "تقديمُ الشمس على القمر لما جرت عليه عادة القرآن إذا جُمِع الشمسُ والقمر، وكان ذلك إما لكونها أعظم جِرمًا وأسطع نورًا وأكثر نفعًا من القمر، وإما لكونها أعلى مكانًا منه وكون فلَكِها أبسطَ من فلَكِه على ما زعمه أهلُ الهيئة وكثيرين من غيرهم، وإما لأنها مُفيضةٌ النورَ عليه كما ادعاه غير واحدٍ، واستأنس له بقوله سبحانه: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُورًا}"[2].

المطلب الثاني: تلازم ذكر الترغيب والترهيب بين يدي الأحكام التكليفية:

من عادات القرآن إردافُ الأحكام التكليفية بذِكر الوعد والوعيد وتخلُّلها بمواعظ الترغيب والترهيب، تنشيطًا للنفوس على فعل المأمور وتركِ المحظور، واستنهاضًا لهِمَم المكلَّفين لئلَّا يَمَلُّوا ثِقَلَ التكليف فيركنوا إلى دَعَة النفوس وخمول الطباع، وهذا فيه أتمُّ المناسبة في استكمال مقاصد التشريع وإتْباعِها بما يحقِّقُها ويُعزِّزُها، وحَمْلِ النفوس تارةً على الترغيب وتارة على الترهيب، ليكون المؤمن بين الخوف والرجاء. قال الإمام الزركشي: "وقد جرتْ عادة القرآن العظيم إذا ذَكَر أحكامًا ذكر بعدها وعدًا أو وعيدًا لتكون باعثًا على العمل بما سبق... وتأمَّلْ سورةَ البقرة والنساء والمائدة تجدْه كذلك"[3]. وهذا؛ ليكون أسلوب العرض وما ردفه باعثًا على العمل، ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه؛ ليعلم عظم الآمر والناهي[4].

وقد استفاض كلام المفسرين في التنبيه على هذا العرف القرآني في تفاسيرهم، فمن ذلك ما ذكره العلامة ابن عاشور في تعليل السياق الذي اكتَنَفَ قوله تعالى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا}. فقال: "اعتراضٌ ناسَبَ ذِكرُهُ بعد ذِكْر ذَنْبَيْن كبيرَيْن: وهما قتلُ النفس، وأكلُ المال بالباطل، على عادة القرآن في التفنُّن من أسلوب إلى أسلوب، وفي انتهاز الفُرص في إلقاء التشريع عَقِب المواعظ وعكسه"[5].

---

[1] التفسير الوسيط، مجموعة من العلماء، ط1، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1414ه/1993م، (104/8).

[2] روح المعاني، الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ، (371/6).

[3] البرهان، الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، 1376ه/1957م، (40/1).

[4] معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1408هـ/1988م، (45/1)، الأصلان في علوم القرآن، محمد القيعي، ط4، 1417ه/1996م، (ص61)، الموسوعة القرآنية، الأبياري، د.ط، مؤسسة سجل العرب، 1405هـ، (283/2).

[5] التحرير والتنوير، (26/5).

المطلب الثالث: الكناية فيما لا ينبغي التصريح باسمه:

من العادات القرآنية المستحكَمَة؛ أنَّ الله تعالى إذا ذَكَر ما يكتنف العلاقة بين المرء وزوجِه كنَّى عما يكون بينهما، ولم يتعرَّضْ له بالتوصيف والذِّكر المباشر إيثارًا للستر والتصوُّن، ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه: {وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ}. وقوله: {كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ}، وقوله: {فلما تغشاها}.

فجميع هذه النصوصِ وما شاكَلَها المقصودُ بها الجماعُ والوِقاعُ، ولكن لما كان هذا الشأن مما يجري على الستر والاستحياء من التصريح به، جاءت هذه الألفاظ التي تحقِّقُ المقصودَ في الإفهام دون أن تخدِشَ الحياءَ، فهذا منهجُ القرآن في تهذيب النفوس وتربية الألسنة والأقلام على العِفَّة والطُّهر. قال الإمام الشاطبي في موطن التعريج على بعض معهودات القرآن، فكان مما ذكره قوله: "تحسين العبارة بالكناية، ونحوها في المواطن التي يحتاج فيها إلى ذكر ما يُستَحْيَى مِن ذِكره في عاداتنا"[1]. وعبارة الإمام الشاطبي مستقاةٌ من مقالة ابن عباس رضي الله عنهما، فقد كان يقول: "إنَّ الله حَيِيٌّ كريمٌ يُكَنِّي، كلُّ ما ذُكر في القرآن من المباشرة والملامسة، والإفضاء والدخول والرفث، فإنما عَنَى به الجِماع"[2].

وما زال أهل العلم يُجِلُّون هذه العادة القرآنية حتى توسَّعَ بعضُهُم في حمْلِ اللفظ الصريح على الكناية، التزامًا منهم بجادَّة هذا الأصل التربوي العظيم، قال الزركشي في قوله تعالى: {والتي أحصنتْ فرجَها} فصرَّحَ بالفَرْج؟ -وقد- أخطأَ مَن توهَّم هنا الفرجَ الحقيقيَّ، وإنما هو مِن لطيفِ الكنايات وأحسنها، وهي كنايةٌ عن فَرْج القميص، أي لم يعلَّقْ ثوبُها ريبةً، فهي طاهرةُ الأثواب، وفُروجُ القميص أربعة: الكُمَّان، والأعلى والأسفل، وليس المراد هذا، فإنَّ القرآن أنزَهُ معنًى، وألطفُ إشارة"[3].

المطلب الرابع: تنزيه الله سبحانه وتعالى عن نسبة السوء إليه:

من المعهود في الخطاب القرآني نسبةُ النعم والأمور الحميدة إلى الله تعالى نسبةً مباشرة، وتنزيهُه سبحانه عن إسناد السوء إليه، والله تعالى بذلك يربِّي خلقَهُ على الأدب معه سبحانه، وأن الكلام عنه جلَّ وعلا ليس كالكلام عن الغير، فالله تبارك وتعالى؛ وإنْ كان خالقَ كلِّ شيء؛ والخيرُ والشرُّ مخلوقان لله تعالى؛ لكن يلزم التأدُّبُ معه في نسبة الأمور إليه. قال الدكتور فاضل السامرائي:

---

(1) الموافقات، (201/4).

(2) أخرجه الطبري في تفسيره، (242/3)، وابن أبي حاتم في تفسيره، (346/1)، قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وإسناده صحيح. فتح الباري، د.ط، دار المعرفة، (272/8).

(3) البرهان، (305/2).

"ومن عادة القرآن أن ينسب الخير إلى الله تعالى، وكذلك النعم والتفضل، وينزه نسبة السوء إليه سبحانه"[1]. وجماع ذلك كله قوله صلى الله عليه وسلم: "والخيرُ كلُّه في يدَيْكَ، والشَّرُّ ليس إليك"[2]. أي: ليس إليك نسبةً وإضافةً، وإنْ كان إليك خَلْقًا وإيجادًا وتقديرًا. قال الإمام الرافعي: "قيل: لا يُفرَدُ بالإضافة إليك، كما لا يقال: يا خالق الحيات والحشرات"[3].

ومن الأمثلة على ذلك؛ قوله تعالى: {صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين}. فمع أنَّ عامِلَ الإنعام وعامِلَ الغضب منه سبحانه، غير أنه نسَبَ الإنعام إليه دون الغضب إجلالًا لذاته سبحانه. قال الإمام ابن القيم: "أضاف النعمة إليه، وحذَفَ فاعلَ الغضب لوجوه؛ منها: أن النعمةَ هي الخير والفضل، والغضبُ من باب الانتقام والعدل، والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما. وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه، وحذَفَ الفاعلَ في مقابلتهما..." [4].

ومِن ذلك قول الخليل عليه السلام: {وإذا مرضتُ فهو يشفين} فأسنَدَ المرضَ إلى نفسه، ونسبَ الشفاءَ إلى ربه، مع أنهما مخلوقان لله سبحانه، لكنه الأدب مع الله ومراعاة حقِّ الألوهية ألفاظًا وأغراضًا. قال القاسمي: "إنما نَسَبَ المرضَ إلى نفسه والشفاءَ إلى الله تعالى؛ مع أنهما منه؛ لمراعاة حُسنِ الأدب معه تعالى، بتخصيصه بنسبة الشفاء الذي هو نعمة ظاهرة إليه تعالى"[5].

ومن ذلك قول مؤمني الجنّ: {وأنَّا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا} فحَذَفوا عاملَ إرادة الشرّ وأبرزوا عاملَ إرادة الرشد، جريًا على معهود الخطاب القرآنيّ في ذلك.

المطلب الخامس: تقديم اسم الله "الغفور" على اسمه "الرحيم":

من عادات القرآن الجارية تقديمُ اسم الله: "الغفور"، على اسمه تعالى: "الرحيم"، وهذا عامٌّ في القرآن كلِّه، إلا موضعًا واحدًا في فواتح سورة سبأ: "{يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا

---

[1] لمسات بيانية، ط3، دار عمار، الأردن، 1423ه/2003م، (ص65).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، (534/1/ح771).

[3] شرح مسند الشافعي، الرافعي، ط1، وزارة الأوقاف القطرية، 1428ه/2007م، (314/1).

[4] مدارج السالكين، ابن القيم، تحقيق: محمد المعتصم بالله، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1416هـ/1996م، (35/1)، والتفسير القيم، ط1، مكتبة الهلال، بيروت، 1410هـ، (ص15).

[5] محاسن التأويل، القاسمي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ، (460/7).

يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وهو الرحيم الغفور}[1]. فكان من طرائق القرآن المألوفة الإتيان بالمغفرة قبل الرحمة، وذلك لأنَّ الخطأ لازمٌ لعموم المكلَّفين، حتى الرُّسُلُ والأنبياء حَكى القرآنُ زلاَّتِ بعضهم ليحمل الناسَ على التأسِّي بهم في المبادرة إلى التوبة، فالله تعالى يُربِّي هذا السلوكَ القويم في قلوب عباده ليرغِّبَهم في رحمته ولا يُقنِّطَهم من رأفته سبحانه. من هنا قال أئمة العلم في اطِّراد هذا الأمر: "المغفرةُ سلامةٌ، والرحمةُ غنيمةٌ، والسلامةُ مطلوبةٌ قبل الغنيمة"[2].

وقد تنوَّعتْ أنظارُ العلماء في التماس حكمةِ تقدُّمِ اسم الله "الغفور" على اسمه "الرحيم"، فحَمَلَها بعضهم على مقتضى المحمل اللغوي الذي تدفَّقَتْ معاني القرآني في ألفاظِه وتراكيبه، فجعلوا ذلك جاريًا على النمط اللغوي العربيّ المتدرّج في الصياغة من الأدنى إلى الأعلى، ومعلومٌ أنّ الإنعام بالرحمة أعظم من الإنعام بمجرَّد الغفران. وذهب آخرون إلى تعليل هذا الترتيب بالقاعدة الكبرى: "درءُ المفاسد مُقدَّمٌ على جلْبِ المصالح"، وجعل بعضهم ذلك راجعًا إلى ترتُّبِ المغفرة على الرحمة، فالله جلَّ شأنه إنما يغفر ويصفَحُ لأنه رحيمٌ لا لضعفٍ أو عجْزٍ منه سبحانه. "أمَّا الحكمةُ مِن جريان العادة القرآنية بتقديم اسم الغفور على الرحيم، فهي أنَّ دفعَ الضرر أولى من جلب المنفعة، فضلاً عن أن في هذا الترتيب تصاعدًا في النعم من الأدنى إلى الأعلى، "والمغفرة ستر للذنوب، أمَّا الرحمةُ فتفَضُّلٌ وإنعامٌ زائدٌ على مغفرة الذنوب؛ لذا قُدِّمت المغفرةُ على الرحمة، والتخليةُ مقدَّمَةٌ على التحلية"[3].

---

[1] تنازع أهل العلم في التماس الحكمة من ذلك، فمنهم من قال الغاية منه استعراض إبرازُ القدرة الإلهية على الإنعام بتهيئة هذه الأرض لمن يسكنها، والامتنانُ أدخَلُ في الرحمة منه في الغفران، ومنهم من علَّله بانتفاء ذِكر الذنوب والخطايا في السياق فكان تقديم المغفرة غير مناسبٍ لانتفاء سببها، ومنهم من قال: ليُعلَمَ أنَّ رحمته تسبق غضبَه... التفسير الكبير، الرازي، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420ه، (192/25)، بدائع الفوائد، ابن القيم، د.ط، دار الكتاب العربي، بيروت، (80/1)، السراج المنير، الشربيني، مطبعة بولاق، القاهرة، 1285ه، (278/3).

[2] البرهان، (249/3)، تفسير ابن عرفة، تحقيق: جلال الأسيوطي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008م، (171/4).

[3] محمد عباس، إعجاز القرآن الكريم، (ص213)، التناسب في سورة البقرة، طارق مصطفى حميدة، جامعة القدس، 1428ه/2007م، (ص53).

المطلب السادس: تعقيب البشارة بالنذارة والوعد بالوعيد أو العكس[1]:

من المناهج القرآنية المستمرة ما انعقدتْ عليه عادة الكتاب الكريم من قرْنِ الترغيب بالترهيب والإتيان بهما في سياقٍ واحد، وهذا المسلكُ القرآنيُّ النبيلُ منهجٌ أخلاقيٌّ تهذيبيٌّ تكرَّر في ثنايا المصحف حتى بات عادةً مستمرةً فيه. والغاية منه تربيةُ النفوس على عَقْد المقارنات بين عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين، والتبصُّر في مصير كلٍّ منهما، ولا يخفى ما لهذا المنهج القويم من أثرٍ حميدٍ على رسوخ الإيمان وتعزيز اليقين وتوطيد الصلة بالله تعالى. لأن إيرادَ هذه الأضداد على هيئةٍ متقابلةٍ حاملٌ للعقلاء على تأمُّلِهما والاعتبار بما يكون منهما، وليكون المسلم بين الرغبة والرهبة، وهذه غاية الكتاب العزيز في ذلك.

ومن أمثلة ذلك؛ قوله تعالى: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} وقوله: {وَفِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}، وقوله: {إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ}. وقوله: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ...كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ}.

وقد نصَّ أئمة التفسير على ذلك في تفاسيرهم، وممن توسَّع كثيرا في النصِّ على هذه العادة القرآنية؛ العلامة ابن عاشور في التحرير والتنوير، والأستاذ سيد طنطاوي في تفسيره[2]، فمن ذلك ما ذكره الأستاذ محمد سيد طنطاوي في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا... وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ...}، تلك عادة القرآن في تربية النفوس، إنه يَسُوق عاقبةَ الكافرين ثم يُتبِعها بحسن عاقبة المؤمنين أو العكس، ليحْمِلَ العقلاءَ على الابتعاد عن طريق الكفر والعصيان، وليغريَهم بالسير في طريق الطاعة والإيمان"[3].

---

[1] هذا المطلب يتشابه مع المطلب الذي تقدَّم ذِكره بخصوص ذِكر الوعد والوعيد بين يدي الأحكام التكليفية، لكن بينهما عمومٌ وخصوصٌ، فذاك متعلِّقٌ بورود الترغيب والترهيب في سياق التكاليف الشرعية، وهذا مطلبٌ عامٌّ يرتبط باقتران الوعد والوعيد مطلَقًا في القرآن الكريم، لذلك جعلتُه هنا مطلبًا مستقِلًّا.

[2] ذكرها ابن عاشور في أكثر من ثلاثين موضعًا من تفسيره، وذكرها الطنطاوي في أزيد من عشرين موضعًا من تفسيره.

[3] التفسير الوسيط، طنطاوي، ط1، دار نهضة مصر، القاهرة، 1997م، (186/3).

المطلب السابع: إطلاق مصطلح "عباد" على خصوص أهل الإيمان:

المقصود بهذا أن القرآن الكريم انعقَدَ عُرفُه اللغويُّ على تسمية المؤمنين «عبادًا»، كما في عموم النصوص التي اشتملت على هذا المصطلح. وتخصيص أهل الإيمان بهذا اللفظ في معهود الاستعمال القرآني من دلائل التشريف، لأن مقام العبودية من أسنى مقامات التكريم الإلهي[1].

قال الفخر الرازي: قوله تعالى: {يا عبادي} "يقتضي تخصيصَ هذا الخطاب بأهل الإيمان، فإنَّ عادةَ القرآن جاريةٌ بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين"[2].

وجاء في تفسير أبي حيان الأندلسي: "الذي يظهر أن لفظة «عبادي» مضافةً إليه تعالى كَثُر استعمالها في المؤمنين في القرآن كقوله: {فبشر عباد} وقوله: {الذين يستمعون القول} وقوله: {فادخلي في عبادي} وقوله: {عينا يشرب بها عباد الله}[3].

قال الخطيب الشربيني في تفسير قوله تعالى: {يا عباد لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون}، "أضافَهُم إلى نفسِه إضافةَ تشريفٍ، لأن عادةَ القرآن جاريةٌ بتخصيص لفظِ العباد بالمؤمنين المطيعين المتقين"[4].

المطلب الثامن: عطف الخاص على العام عطفٌ لأشرف أفراده عليه:

من العادات المستمرة في القرآن الكريم؛ أن الله تبارك وتعالى إذا ذَكر قضيَّةً عامَّةً ثم أردَفَها بذكر بعض أفراد ذاك العموم، فإن ذاك الفرد الخاص المعطوف على العام عادةً ما يكون أشرف أفراده. قال الفخر الرازي: "عادة القرآن جاريةٌ بأنه إذا ذَكَر قضيةً كليَّةً عطفَ عليها بعضَ جزئياتها، تنبيهًا على كونه أعظم جزئيات ذلك الكليّ"[5].

ومن النماذج القرآنية على هذا الأصل؛ قوله تعالى: {من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} وقوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم}.

---

(1) مدارج السالكين، (122/1).

(2) معالم أصول الدين، الفخر الرازي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، د.ط، دار الكتاب العربي، لبنان، (ص132).

(3) البحر المحيط، أبو حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، د.ط، دار الفكر، بيروت، 1420هـ، (66/7).

(4) السراج المنير، (527/3).

(5) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420ه، (424/21)، و (29/28).

قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {فيهما فاكهة ونخل ورمان}، قوله: "{ونخل ورمان} من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرَدَ النخلَ والرمان بالذِّكر لشرفهما على غيرهما"[1].

وقال الخطيب الشربيني في تفسير قوله تعالى: {وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدًا}: "معطوفٌ على قوله تعالى: {لينذر بأسًا شديدًا من لدنه} والمعطوف يجب كونه مغايرًا للمعطوف عليه، فالأوّل عامٌّ في حقّ كل كافرٍ، والثاني خاصٌّ بمن أثبَتَ لله ولدًا، وعادة القرآن جاريةٌ بأنه إذا ذَكَر قضيةً كليَّةً عطَفَ عليها بعضَ جزئياتِها تنبيهًا على كونه أعظَمَ جزئياتِ ذلك الكليّ"[2].

المطلب التاسع: حذف ما يدل عليه السياق:

المألوف من عادات القرآن في استعماله؛ حذفُ كلِّ استرسالٍ في الكلام مما لا تدعو الحاجة إلى ذكره والنَّصِّ عليه، لأنَّ بلاغة القرآن الكريم تستوجب الإطنابَ في مقام الإطناب والإيجازَ في محلِّ الإيجاز، لكون البلاغة مطابقةَ الكلام لمقتضى الحال. ولما كان القرآن كتاب هدايةٍ وليس مجالًا للسرد التاريخيِّ والرواية القصصية المفصَّلَة، كان منهجُه قائمًا على حذفِ ما يدلُّ عليه السياق ولا طائل تحت ذكره، لأنَّ القصَّةَ أو الحَدَثَ المذكور إنما يَسُوقُه القرآنُ لأخْذِ العبرة والعظة، وليس في القرآن كلِّه حرفٌ - فضلًا عن كلمةٍ أو جملةٍ- إلا وله حكمتُهُ ومغزاه من الذكر، علِمَهُ مَن علِمَهُ وجهِلَهُ مَن جهِلَه.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصديق أفتنا} تقديره: فأُرسِل فجاء فقال: يوسف أيها الصديق..."[3].

قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: {وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ} "لأنَّ الشأن أنَّ ذلك لا يقَعُ إلا مع كلامِ توبيخ... على عادة القرآن في توزيع القصة، واقتصارًا على موقع العبرة ليخَالف أسلوبُ قَصَصِه الذي قُصِدَ منه الموعظةُ، أساليبَ القصَّاصين الذين يقصدون الخبَرَ بكلِّ ما حدَث"[4].

قال البقاعي: "التقدير: ثم يعيدكم خلقًا جديدًا كما كنتم أول مرة، فحذفه كما هو عادة القرآن في حذف كل ما دل عليه السياق ولم يدعُ داعٍ إلى ذكره"[5].

---

[1] تفسير ابن كثير، تحقيق: سامي محمد سلامة، ط2، دار طيبة، 1420ه/1999م، (507/7).

[2] السراج المنير، (348/2).

[3] غرائب التفسير وعجائب التأويل، الكرماني، دار القبلة، جدة، (539/1).

[4] التحرير والتنوير، (116/9).

[5] نظم الدرر، (250/15).

المطلب العاشر: إطلاق لفظ "الإنسان" في القرآن المكي على أهل الشرك:

مِن العادات القرآنية المستمرة؛ ورودُ مصطلح الإنسان في القرآن المكي ويُرادُ به خصوص المشركين. وهذا لأن الإنسانية واردةٌ في القرآن الكريم في موارد الذَّمِّ غالبًا، قال الإمام أبو حيان الأندلسي: "أكثرُ ما ذُكِر الإنسانُ في القرآن في معرض الذَّمِّ، أو مُرْدَفًا بالذَّمّ"[1].

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين} وقوله: {يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم} وقوله سبحانه: {إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى}

قال العلامة ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: {وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه} "التعريف في الإنسان تعريف الجنس، وهو يفيد الاستغراقَ، وهو استغراقٌ عُرفيٌّ، أي أكثرُ أفراد الإنسان، لأنَّ أكثرَ الناس يومئذ كفارٌ، وأكثرَ العرب مشركون. فالمعنى: إذا أنعمنا على المشركين أعرضوا"[2].

الخاتمة:

وقف الباحث على فوائد متعددة من خلال هذا البحث، وتبيَّن له أن الطرق المنهجية التي اشتمل عليها القرآن؛ والتي تُسمَّى "عادات القرآن"؛ ينبغي لطالب علم التفسير وعلوم القرآن الإلمامُ بها، نظرًا لما لها من عائدةٍ على فهمِهِ لحقائق الكتاب الكريم، كما أنها تُعدُّ مُرجِّحًا قويًّا في مسائل الخلاف، فتُستَصْحبُ العادةُ القرآنية في الفهم والتفسير عند تزاحم الأدلة وتعارضها. وهذه العاداتُ الجاريةُ من الأصول التي يَسترشِدُ بها طالب العلم في تعزيز يقينه بهذا الكتاب العزيز، وأنه حقًّا وصدْقًا من عند الله تعالى، لأنَّ اشتماله على هذه المسالك المطَّردة والعادات الغالبة دليلٌ على وحدانية من أنزله، وصَدَق الله إذ يقول: {وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اِخْتِلافًا كَثِيرًا}.

(1) البحر المحيط، (505/6)، و (193/7).

(2) التحرير والتنوير، (191/15).

قائمة المصادر والمراجع:

- الآلوسي، محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1415ه).
- الأبياري، إبراهيم بن إسماعيل الأبياري، الموسوعة القرآنية، د.ط، (د.م، مؤسسة سجل العرب، 1405هـ).
- -البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، د.ط، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د.ت).
- -البورنو، محمد صدقي، الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، ط4، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1416هـ/1996م).
- الثنيان، راشد بن حمود، عادات القرآن الأسلوبية، د.ط، (السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود، 1432ه).
- الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، تحقيق: جماعة من العلماء، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1403ه/1983م).
- ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، ط3، (المملكة العربية السعودية: مكتبة نزار مصطفى الباز، 1419ه).
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، د.ط، (بيروت: دار المعرفة، 1379ه).
- حميدة، طارق مصطفى حميدة، التناسب في سورة البقرة، د.ط، (جامعة القدس، عمادة الدراسات العليا، 1428ه/2007م).
- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، د.ط، (بيروت: دار الفكر، 1420ه).
- الرازي، الفخر، محمد بن عمر بن الحسن، مفاتيح الغيب، ط3، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420ه). معالم أصول الدين، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، د.ط، (لبنان: دار الكتاب العربي، د.ت).

- الرافعي، عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم، شرح مسند الشافعي، تحقيق: أبو بكر وائل، ط1، (قطر: وزارة الأوقاف القطرية، 1428ه/2007م).
- الرومي، فهد بن عبد الرحمن، دراسات في علوم القرآن، ط12، (د.م، د.ن، 1424ه/2003م).
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل، ط1، (بيروت: دار المعرفة، دار إحياء الكتب العربية، 1376ه/1957م).
- السامرائي، فاضل بن صالح، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ط3، (الأردن: دار عمار للنشر والتوزيع، 1423ه/2003م).
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1408هـ/1988م).
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات، تحقيق: مشهور بن حسن، ط1، (د.م، دار ابن عفان دار ابن القيم، 1417ه/1997م).
- الشربيني، شمس الدين محمد بن أحمد، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، د.ط، (القاهرة: مطبعة بولاق، 1285ه).
- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، ط1، (د.م، مؤسسة الرسالة، 1420ه/2000م).
- طنطاوي، محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ط1، (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 1997م).
- ابن عاشور، محمد الطاهر، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، د.ط، (تونس: الدار التونسية للنشر والتوزيع، 1984م).
- عباس، فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، د.ط، د.م، د.ن، د.ت.
- ابن عرفة، محمد بن محمد، تفسير ابن عرفة، تحقيق: حسن مناعي، ط1، (تونس: مركز البحوث بالكلية الزيتونية، 1986م).
- الغريسي، محمد صالح الغريسي، عادات القرآن الكريم وأثرها في التفسير، مجلة البحوث والدراسات، عدد رقم: 21، 2016م.

- ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، ط1، (د.م، دار الفكر، 1399ه/1979م).
- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ط8، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1426ه/2005م).
- ابن قاسم، عبد الرحمن بن محمد العاصمي، حاشية مقدمة التفسير، ط2، (د.م، د.ن، 1410ه/1990م).
- القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1418هـ).
- القرافي، شهاب الدين أحمد بن أبي العلاء، شرح تنقيح الفصول، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ط2، (د.م، شركة الطباعة الفنية المتحدة، 1393ه/1973م).
- قلعجي، قنيبي، محمد رواس قلعجي، حامد صادق، معجم لغة الفقهاء، ط2، (د.م، دار النفائس، 1408هـ/1998م).
- القيعي، محمد بن عبد المنعم القيعي، الأصلان في علوم القرآن، ط4، (د.م، د.ن، 1417ه/ 1996م).
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، بدائع الفوائد، ط1، (مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، 1416هـ/1996م). مدارج السالكين، تحقيق: محمد المعتصم بالله، ط3، (دار الكتاب العربي، بيروت، 1416هـ/1996م). التفسير القيم، ط1، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1410ه).
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي سلامة، ط2، (د.م، دار طيبة، 1420ه/1999م).
- الكرماني، محمود بن حمزة بن نصر، غرائب التفسير وعجائب التأويل، د.ط، (جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية، د.ت).
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، د.ط، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).
- ابن نجيم، زين الدين بن إبراهيم بن محمد، الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان، تحقيق: زكريا عميرات، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1419ه/1999م).